الفصل السادس

جيل المؤسسين الأوائل
وجيل شباب الثورة

جيل المؤسسين الأوائل هو جيل المؤمنين فى صدر الإسلام، جيل احتضن القرآن فتشرب تعاليمه وقيمه الأخلاقية وعاش حياته قرآنى التوجه، توحيدى المعتقد، أخلاقى السلوك، علمى التفكير، حضارى الوعى، وقد احتضنه ـ أيضًا ـ هذا القرآن بالتوجيه والتعليم والإرشاد والهداية، جيل رباه النبى ﷺ فخلق من بداوة الإنسان العربى فى جاهليته إنسانًا عربيًّا مؤمنًا قوى الإيمان فى عقيدته وفى عبادته وفى أخلاقه وفى معاملاته، جيل إنسانى متميز لإنسان يمكن أن نصفه بأنه إنسان متحضر الذى على أكتافه قام الدين وانتشر، وقامت الدولة وتطورت، فى تآخ للمؤمنين وتآلف بين قلوبهم، قادة ومواطنين.

إن ذلك الجيل ه و النموذج الأرقى للإنسان الذى يجب على جيلنا المعاصر أن يترسم خطاه، ويقتدى بسلوكه والسلوك الأخلاقى لمثله الأعلى النبى محمد ﷺ، وهو قرآن حى فى خلقه العظيم ورحمته للعالمين ﷺ.

إن جيل المصريين المعاصر يحتاج أن يبنى نفسه على نفس نمط البنيان الشامخ والمتقدم لجيل الصدر الأول. يجب أن يتحرر جيلنا المعاصر من التسيب الأخلاقى والتدهور فى القيم ومن براثن التخلف بكل صوره وبكل آثاره، وأن يتحصن بالعلم والمعرفة، وأن يطرح عن كاهله القصة الدينية التى لا أصل لها، وأوهام الخرافة والخيال، وتقديس الرجال، وجمود ضيق الأفق والانغلاق، والفهم المنقوص للإسلام.. وهى العوامل التى

تؤدى إلى ضياع مفهومية الإسلام الحضارى وهدفية التربية والسلوك الأخلاقيين لتتأكد فى غيابهما انعزالية التواكل فى الدنيا، وحصرية الدين فى الشعائر التعبدية وغالبًا فى شكلها لا موضوعها، فيتراجع الإنسان الذى هو فى الحقيقة قوام الدين والدولة معًا، عن أداء دوره فى إجراء التغيير نحو الأفضل والإصلاح نحو الأحسن، ووعيه بالتمسك بحقوقه وحرياته، ومعرفته بأصول نهضته وتقدم مجتمعه ودولته، وطريق تمدنه وحضارته. ومن هنا تأتى ضرورة تجديد الخطاب الدينى لتكون رسالة علمائه الأساسية هى الارتقاء بالإنسان المواطن فى الدولة عن طريق بيان الدور الأخلاقى الذى لا غنى عنه للدين فى بناء هذا الإنسان المواطن وتنمية وعيه الحضارى وتصحيح مفهومه للدين بتوضيح دوره فى البناء والتعمير عملًا فى الدنيا لتحقيق أمانة الخلافة فى الأرض، ودوره فى تدعيم البنية المؤسسية للدولة والأصول التى تنبنى عليها نهضتها وتنبنى عليها جهودها لتجاوز التخلف ومشاكله.. وذلك لن يتحقق إلا بتنمية الوعى الأخلاقى والسياسى والعلمى والثقافى والاجتماعى فى إطار الوعى برسالة الدين الحضارية وترسيمه لدعائم الحرية والديمقراطية.

ومن هنا تبرز - أيضا - أهمية تجديد الخطاب السياسى من أجل تنمية وعى الإنسان المواطن، وتوجيهه لتعلم قيم مثل الديمقراطية والشورى من خلال تربيته تربية سياسية ديمقراطية يستطيع بها - مثلًا - أن يختار أولًا ثم يفهم ويقيم دور المجالس النيابية فى التشريع والرقابة وتقييم السياسات، ودور الضوابط الدستورية والرقابة القضائية فى حماية مباشرته لحقوقه وحرياته وواجباته وفقًا للدستور والقوانين، ودور السلطة التنفيذية الخاضع للدستور والقانون دون أن يتجاوزهما، وأهداف وسياسات الحكومة فى النطاق المحلى والإقليمى والدولى، وأهدافها وخططها الاقتصادية والاجتماعية.. وأهداف رسائل الثقافة والفنون والآداب والإعلام... إلخ.

إننا أمام تساؤل مضمونه من هو إنسان القرآن؟

إنسان القرآن هو الإنسان الخليفة المكلف الذى حمل أمانة العقل بكل خصائصه وطاقاته، الإنسان الحر المكرم من خالقة، يملك أن يطيع وأن يعصى، ترفعه طاعته إلى

أعلى عليين ـ الأرواح الطاهرة، وتنزله معصيته إلى أسفل سافلين ـ الشياطين الضالة. الإنسان مسؤول عن عمله في الحياة الدنيا مسؤولية فردية فهو لا يحمل وزر غيره ولا نتائج عمل غيره وهو لذلك يحاسب حسابًا شخصيًّا يوم القيامة فيما يقرأ من كتابه الذى يلقاه منشورا ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾ [الإسراء: ١٤]، الإنسان ثنائى التكوين، روح وجسد، لكل منهما متطلباته ودواعيه، وهو بالفعل يحافظ على التوازن بينهما بميزان العدل الذى لا يبخس للجسد ودواعيه حقه بطغيان روحه المتطلعة إلى الملأ الأعلى، كما لا يخبس للروح ودواعيها حقها بطغيان الجسد ودواعيه من الغريزة الجامحة غير المنضبطة بشرع الله.. بذلك تتوازن شخصية الإنسان وتكتمل صحته النفسية ليصبح إنسانًا سويصا وسطًا ومعتدلًا فى أقواله وأعماله وسلوكياته، تدعمه أخلاقيات الدين بالقيم الروحية والمعاملات الحسنة التى يمكنها أن تواجه الضغوط المادية الى يواجهها إنسان هذا العصر الذى طغت فيه المادة والنظرة الدنيوية البحتة التى لا تقيم للأخرة وزنًا ولا للحساب شأنًا.

إن الإنسان بأصله الآدمى هو ابن ذكر وأنثى ينتمى إلى قبائل وشعوب وأمم متباينة لا فضل فيها لأحد على غيره إلا بالعمل الصالح وتقوى الخالق، ولا تمايز من إنسان وآخر فيها إلا بالأخلاق الكريمة التى هى محور الأديان السماوية كلها.

إن أول ما تزل إلى الإنسان من آيات كلام الله هو «إقرأ باسم الإله الذى خلق الطبيعة الكونية وخلق الإنسان الأول وعلمه القراءة (القرآن) والبيان (اللغة)، وإن خطاب النبوة والرسالة الموجه إلى عقل الإنسان قد اختتم سلطان الأحبار والقادة وتقديسهم، كما اختتم سلطان المعجزات المادية وخوارق العادات، ليظل الخطاب الدينى موجهًا إلى «العقل» المتناغم مع الطبيعة (المادة ـ الطاقة) والعامل فى الإنسان نفسه الذى يحمل فى تركيبه وحدة المادة والفكر ليدرك الإنسان ما حوله من خلال الشعور الذاتى بوجوده ـ الحد المستقل.

لقد ساق القرآن نصوصه فى آدم فى صورة قصة، والمحور الذى يدور عليه القصص القرآنى هو الدعوة إلى الإله الخالق وتوحيده، كما إن المحور الذى تدور عليه القصة

الآدمية هو كشف أغوار النفس الإنسانية والطبيعة البشرية والقدرات والخصائص العقلية والروحية للإنسان فى علاقته بالطبيعة وبأخيه الإنسان وبالإله الخالق من خلال إبراز حقيقة معنى «العصيان» لآدم الذى إنما يشير إلى الإرادة الحرة لهذا المخلوق الفريد وقدرته المستقلة على الانصياع للأمر الإلهى أو عدم الانصياع، أى الطاعة والعصيان وليس المعصية كما يظن البعض.

إن القرآن يستند فى تعامله مع الإنسان إلى مبدأى الخبرة والعلم الإلهى بالإنسان وبطبائعه ونوازعه وخواطره والهامات وقدرات عقله وروحه إلى جانب دواعى فسيولوجية وغرائزه... إلخ، ومن هنا تأتى المعالجة القرآنية لشؤون الإنسان على أكمل ما تكون المعرفة بالإنسان ذاته ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] ولتوجيه سائر العلوم والمعارف المتصلة بالإنسان للتعامل معه من هذا المنطلق المعرفى خاصة فى موضوعات النفس بما يصمن صحتها وسلامتها وتوازنها لأن الإنسان فى المنظور الإسلامى كيان متكامل ويجب ألا ننظر إليه من ناحية سلوكه الظاهر ونلغى ما فى باطنه من مشاعر وخواطر وخلجات تستند إلى النيات أى الدوافع والاتجاهات، بل نجمعهما معًا، لتظل العلاقة بين النفس والقلب والعقل والروح فى اتصال بجسد الإنسان ووظائف أعضائه، علاقة وثيقة ومتشابكة ومتداخلة، كل فيما هو مسر له وهُدى إليه من خالقه، وقد وضع القرآن مبدئ اجتماعيًا وتربويًا مفادة أن الإنسان هو أساس «التغيير» فى المجتمع وفى الدولة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] كذلك إلى الأفضل أو إلى الأسواء أى نحو التقدم أو نحو التأخر.

لقد حفظ الله لنا «القرآن» ـ وهو المرجعية الإسلامية العليا للدولة ـ حيًّا ينبض بكل أسباب الحياة الحقيقية من حيث هو روح يمد الأرواح، ونور يهدى القلوب، وفرقان يستنير به الفكر الحر والعقل المؤمن، وقواعد تنبنى عليها حضارة إنسانية قوامها التقدم المادى والروحى فى اعتدال ووسطية وتوازن، ومن حيث هو منهاج للأخلاق الكريمة ودعوة للسلوك العقلانى الحضارى، ودين كامل وشامل ينظم شئون الناس فى أمورهم العقيدية وأمور دنياهم الاجتماعية ليسود منهاج الشريعة فى حياتهم ويسود

قانـون الشريعة فى دولتهم، وبحيث لا يتعدى إنسـان عـلى آخر ولا مواطن على آخر فيما يتعلق بحق كل واحد فى اختياره الحر لمرجعيته الإيمانية وفى إقامة شـعائره العقيدية وفى تطبيق شريعته القانونية التى يتساوى أمامها جميع المواطنين.

كما حفظ الله لنا سيرة وصفات وخصائص ومعانى إنسان بشر، وسراج منير، قدوة لنـا ومثلًا أعـلى للأخلاق العظيمـة هو محمـد رسـول الله ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلـم: ٤]؛ لنحيـا معه فى عصرنا كما عـاش معه جيل المؤسسـين الأوائل من الصحابة الذيـن عـاصروا شريعته وأسسـوا معه أول دولـة مدنية قانونية فى تاريخ الإسـلام، على هـدى مـن نموذجها نعمل لبناء مـصر الحديثة. إن المصريين يحتاجـون إلى قدوة صالحة، فى كافة مستويات المسئولية فى الدولة، وشـخصية الرسـول الإنسـان القدوة لا تخضع لفوارق بعد الزمان واختلاف المكان، شخصية لا تنتهى أضواؤها بانتهاء حياتها الجسدية بالموت، بل هى شـخصية باقية بروحها الطاهرة الخالدة، يتأسـى بسراجيتها المنيرة اليوم كل مـصرى بل كل مسـلم، فتمده بقوة فى العقيدة وطاقة فى العمـل المتقن البناء، ودافعًا للعبادة الخالصة التى تحقق الهدف المنشود منها، وهو تقوية الصلة المستديمة بالله سبحانه وتعـالى، أى (الذكـر) الذى ينهى عن الفحشـاء والمنكـر من القول والعمـل. ونموذجًا للسـلوك الأخلاقى الحضارى القائم على الإخاء والمحبة والتعاون والتسـامح والسلام، وإضافـة للعطـاء والإيثار والتضحية مـن أجل تقدم الوطن ونهضته وسـلامته... هكذا يعيش معنا محمد رسول الله ﷺ بسراجيته المنيرة، صفاتًا وأخلاقًا وسنة، وبالكتاب الذى أوحـى إليـه، قرآنا محفوظًا، وهكـذا نعيش نحن معه اليوم متحققـين بصفات أهل المعية ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتـح: ٢٩] فأهـل معيـة محمـد ﷺ ليسوا أسماء بعينها، وإنما المتحلون بصفات أهل المعية فى كل زمان.

إن الدولـة ومؤسسـاتها وهيئاتهـا الأهليـة والحكومية لايمكن أن تتغـير أحوالها إلى

الأفضل إلا إذا تغير حال إنسانها المواطن إلى الأفضل، والإنسان المواطن لا يمكن أن ينصلح حاله ويرتقى إلى الأحسن إلا من خلال الأديان بخطابها الموضوعى العلمى والإيمانى والأخلاقى، ولذلك فإن الدين والدولة الحديثة ـ فى هذا الإطار ـ يتداخلان ويعتمد كل منهما على الآخر، متفاعلين معًا لإيجاد الإنسان المواطن الصالح المتصف بالوعى بحقوقه وواجباته، وبالمعرفة بحاجاته الأساسية وحاجات مجتمعه، وبالعلم بالأسس التى تنبنى عليها مؤسسات حكومته ودولته، وبالثقافة التى يطلع بها على تجارب الآخرين فى عالمه، وبالمعرفة المهنية، الفنية والتقنية، التى تحقق الإتقان فى عمله والجودة فى إنتاجه، وبالأخلاق التى تحقق الإخلاص فى عمله والانتماء لمنشأته والحب لوطنه.

إن جيل المؤسسين الأوائل هو جيل صحابة محمد الذين شيدوا مع قائدهم وقدوتهم الدولة المدنية القانونية الجديدة ـ الحديثة بمعيار زمانها ـ فى المدينة المنورة على أسس من المرجعية الإسلامية العليا، فكانت فى زمانها دولة ديمقراطية عرفت حقوق الإنسان قبل غيرها، واحترمت كرامة الإنسان قبل غيرها، وازدهرت فيها الحرية والعدالة والمساواة أمام القانون كما عرفت معنى المواطنة الحقيقية، كما تجلت فى ميثاق المدينة بين المسلمين واليهود آنذاك... دولة قامت على الإيمان والعلم والأخلاق الفاضلة وعلى الأخوة والمحبة والتسامح والسلام والإيثار والتعاون وحسن المعاملة والرحمة بين الناس، كل الناس. دولة قامت على دستور إلهى هو القرآن، آمن به ورضى به كل مواطنى الدولة من المسلمين، وعلى قانون هو الشريعة الإسلامية المستمدة من كتاب الأمة الإلهى المصدر... ودولة حققت المساواة والعدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص، وعلى العمل المتقن الصالح والنافع والبنَّاء، والإدارة الرشيدة والشورى الراشدة.

وجيل شباب الثورة المعاصر يتطلع إلى بناء مصر الحديثة، ونتطلع معه إلى بنائها على نفس الأسس الدستورية والقانونية ونفس القواعد والمبادئ العامة التى التزم بها الأولون مطبقة فى بيئتنا المعاصرة وفق متغيرات الزمان والمكان والأعراف والعادات والتطور المعلوماتى والعلمى والتكنولوچى المصرى والعربى والإسلامى والإنسانى

العالمى، بصورة عصرية حضارية حديثة يبنيها الإنسان المصرى الذى ضحى فى ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ بأرواح الشهداء من أجل التغيير إلى الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والقضاء على الفساد والظلم والاستبداد من أجل إقامة دولة ديمقراطية قوية قائمة على الشورى والمشاورة، تعلو بإرادة مواطنيها جميعًا دون أية تفرقة بينهم على واقع التخلف من أجل التقدم والنهضة الشاملة.

obeikan.com